

آلية تصوير الفضاء وتمظهره في الفن الروائي

أ/ مودع سليمان

كلية الآداب واللغات

جامعة بسكرة

الملخص:

Résumé:

Dans notre approche de cette manifestation thème de l'espace en fiction à cause de son champ d'association de référence lumière Semantique pensée imaginaire et l'édition. Et que le but était de donner une perception de la conscience humaine de la vie par la langue, et l'accomplissement des marques dans la conscience du bénéficiaire, dans le cadre de référence appartenant à une communauté culturelle.

Le sens est incorporé sous la forme d'un espace après réception d'images en continu des lieux ou de surveillance des accidents liés au trafic lors du mouvement du personnage dans le discours narratif à l'interieur d'un espace " chronotop".

Car le mouvement ne se passe pas seulement dans un cadre temporel et spatial et c'est par conséquent que l'atmosphère soit occupée par le temps et le lieu ainsi que la nature de la relation des personnages ; puisque le temps on ne le sent pas abstrait sauf s'il iverné dans un lieu ou relativement lié à lui et il n'y a aucun signe de son existence sauf dans sa mémoire par les images concrètes produites à partir de la continuité du temps par le lieu et par la surveillance de la langue.

L'étude de l'espace dans la critique littéraire occidentale ou arabe n'est pas encore résolue à cause de la diversité des points de vue et de l'instabilité des concepts et s'est approché du sujet; tout en inspirant des différents points de la vue que nous pensions qu'ils donnent vraiment l'image complète du sujet.

سعيًا في هذا الموضوع لمقاربة تمظهر الفضاء في الفن الروائي لارتباطه بحقل سيميائي يضفي مرجعية التخيل في التفكير والتحرير.

وأن الغاية منه هي تقديم صورة إدراك الوعي الإنساني للحياة باللغة، وما توحيه العلامات في وعي المتلقي، وفي إطار مرجعية المجتمع الثقافي المنتمي إليه .

يتجسد المعنى في صورة، ذات بعد فضائي نتلقى الصور المتدفقة للأمكنة أو الراصدة للحوادث عند حركة الشخصية في الخطاب الروائي في حيز "زمكاني"، فالحركة لا تتم إلا في إطار زمني ومكاني وعليه فالفضاء يكون مشغولا بالزمان والمكان وطبيعة علاقة الشخصيات. فالزمن لا ندركه حسيا إلا مجسدا في مكان أو مرتبطا به، ولا علامة على وجوده إلا في ما خزنته الذاكرة في صور مادية تنتج من تواصل الزمان بالمكان وترصد باللغة.

فدراسة الفضاء في النقد الأدبي الغربي أو العربي مازالت لم تحسم لتنوع وجهات النظر وعدم استقرار المفاهيم وقد كانت مقاربتنا للموضوع باعتماد وجهات نظر متعددة رأينا أنها تقدم صورة متكاملة عن الموضوع.

مقدمة:

عملنا على إضاءة مفهوم الفضاء في الفن الروائي ، وكان سعينا في البداية منصبا على تحديد مفهوم الصورة لأنها غايتنا من الموضوع ، فما الهدف من تحديد الفضاء إن لم يكن الغرض القبض عليه بتحديد صورته ومفهومه وطبيعته .

قصدنا في هذا البحث إضاءة مفهوم الفضاء (L'ESPACE) بالذات الذي تعرض لحالات من التميع بسبب الالتباس بينه وبين مفهوم المكان (le lieu) و هذا دفعنا أيضا لاستجلاء حقيقته بالنظر في علاقة الفضاء بالزمن والمكان في المتخيل مما يسمح بإضاءته كمرجعية في النص وعملنا على إبراز الفضاء كشكل مكون لمادة الكتابة بالنظر في فضاء النص كروية صادرة عن هيئة راوية تتحكم في المنظومة السردية .

وكان سعينا نحو النص الروائي لاستجابته لآفاق هذه الدراسة، وهذا بموضوعة الفضاء في المتخيل ضمن سياقه الإيديولوجي مما يسمح بإضاءته أيضا كمرجعية في النص، الأمر الذي يدفع لربطه بحقل سمائي عام، كما عملنا أيضا على إبراز الفضاء كشكل مكون لمادة الكتابة، فعدم الاحتفاء به يؤدي لإلغاء هوية الخطاب الروائي.

إن تناول الفضاء الروائي بالدراسة يتطلب التصدي لتلك الإشكالية القائمة على أن النص زمني بطبيعته مما يدفع لتلقي علاماته متدفقة ومتتابعة في الزمن فيكون بذلك الصورة الروائية التي تتقدم علاماتها مجتمعة أي متجاوزة ومتزامنة.

الصورة في السرد الروائي:

يقوم الفن الروائي على الصورة ويهتم بتصوير الحياة من خلال الحوادث مما يساعد على فهم حقيقتها في ظل الوعي الإنساني، والسرد ظاهرة لغوية، واللغة تدل من غير أن تقلد، والتصوير لا يقف عند المظهر الخارجي للمدرك، بل إنه تشكيل لبنية وعي المدرك في كلمات.

والصورة في لسان العرب هي كل "خاصة وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها (...) والجمع صورٌ وصوْرٌ. والصوْر بكسر الصاد لغة في الصور جمع صورة (...) وتصورت الشيء توهمت صورته فتصور لي. والصورة ترد في كلام

العرب على ظاهرها وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته وعلى معنى صفته، يقال: صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته. (1)

وترتبط الصورة بالخيال الذي ينشئها، فهو سمة أساسية للسمو على الواقع؛ لأنه لا يستنسخه بل ينتخب جزئيات منه، فيكون صورة لا نظير لها في الواقع .

وتعد اللغة حاملا لهذه المدلولات، ولقد ذكر الجاحظ الصورة في مجال الأدب وتحديدًا في الشعر فرآها بأنها "ضرب من النسج وجنس من التصوير" (2). وقد وضح عبد القاهر الجرجاني هذا بقوله: "إن اللغة تجري مجرى العلامات والسمات، ولا معنى للعلامة أو السمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلا عليه." (3).

إن قيام الصورة على التخيل وعنصر الإيهام لا ينقص من قيمتها، وإنما يميزها عن الرصد الآلي للواقع، فالتخيل في السرد له قيمته وهو يستند على المحاكاة باللغة والتأليف الجزئي للعناصر لتكون محاكية لموضوع القول كأن يكون فعلا أو قولاً أو منظراً، ولهذا فإن غاية الصورة هي تمثيل "المحكيات في أوام الناس وحواسهم" (4).

والتخيل عند الغربيين هو عملية توليد للصورة قصد تصوير الحقائق المادية والنفسية وبما يفسر مظاهر الوجود وحقائق الكون، والصورة بهذا المفهوم تعتبر استحضارا وتمثيلا وإظهارا بإعادة إنتاج لمادي معطى بأسلوب بصري، والصورة عند ديكارت (Descartes) هي تمثيل الفكر (الذهن) للمدركات وهي على الإجمال، صورة ذهنية مكونة من مواصفات متنفة ملتقطة عبر الحواس لعدة أشياء لها نفس النوعية وباختصار فهي تمثيل واستحضار المدلول في غياب الدال (5).

وإن قيمة الشكل الجمالية تتأسس على فنية البنية اللغوية المستعملة في النص والحركة البانية المتحركة فيه، فتماسك الشكل يقوم على اللغة الفنية المستخدمة في النص والحركة التي تتحكم في هذه اللغة فتفضي بها إلى نحو غايتها، ثم على نظام العلاقة الحميمة التي تربط هذه الشبكة من المظاهر الخارجية والداخلية مع النص، ثم على الرؤية الفنية التي يطررها هذا النص. (6)

إن الكلمات الموجودة على الصفحات لا تشكل صورة أو صورا، فالقارئ هو الذي يفكك علامات الكلمات ويعطيها معنى ودلالة، وفق مهاراته المكتسبة في التعامل مع النص

فالمعاني المتصورة في الأذهان خفية مستورة عن المرسل إليه يحببها المرسل بذكرها له وإخباره عنها فيصير خفيها ظاهرا "وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار، ودقة المدخل يكون إظهار المعنى" (7).

والبحث السيميوطيقي يحد من حرية الكاتب والقارئ (كمرسل ومرسل إليه) في اصطناع المعنى؛ لأنه لا يوجد في الواقع إلا من خلال المرجع، ذلك انه شرط في التجربة التواصلية وقد يظهر النص الروائي بأنه لا يخاطب أحدا، وخاصة في الرواية المعاصرة وهذا لا يغير شيئا فالرواية في الواقع خطاب موجه لمتلقي، ولا يمكن أن يقوم إلا على هذا، فلا يعقل أن يكون سرد من غير مسرود له، وخطاب من غير مخاطب، والعمل الروائي كعمل أدبي "ليس مجرد مجموعة من الألفاظ، وإنما شبكة من "الشيفرات" التي تجعل العلامات الموجودة على الصفحة تقرأ كنص خاص" (8) .

والصورة الروائية كتمثل تتكون عناصرها وتتألف من العواطف والأفكار الموجودة مسبقا وفق ثقافة مصدرها؛ أي منتج الصورة وصاحب الرؤية، وما يراه عن الذات والآخر وعن الفضاء فهي "إذن تمثيل يعتمد على معلومات شبه ثابتة ذات طابع عام ومعقول، ولها شيء من الواقع الملموس". (9)، ولا تتحقق الصورة في الرواية إلا بجميع مكوناتها وخاصة حينما تتحرك شخصية في الفضاء في فعلها وتفاعلها، حينها تتكون الصور الجزئية، وتتأثر تباعا في حركة متنامية لتكون الصورة الكلية التي لا يكون وجودها مشروعا ومكتملا، إلا بعد اكتمال النص أي بعد إحيائه بالقراءة وهذا يدفعنا للقول بأن الصورة الروائية لا تبقى بطبيعتها التشبيهية، وإنما تأخذ طبيعة أخرى مجازية بما تحمله من دلالات رمزية مؤطرة — كما سنرى — فالصورة إذن تركيب ينطلق من العلامات النصية المنتثرة التي يجدها القارئ فيجمعها في شبكة نظامية وفق العلاقات بين مجموع العناصر ويجسدها ذهن المتلقي وفق ما هو مخزون في ذاكرته، فالنص الروائي كخطاب هو مجال بناء الصورة وتكوين الدلالة بالدرجة الأولى.

والصورة الأدبية كما عرفها باجو (PAGEUX) بأنها "كل صورة تنبثق عن وعي مهما كان ضئيلا لأننا في علاقتها بالآخر، ولها في علاقتها بمكان آخر فهي إذن تعبير أدبي أو غير أدبي، عن انزياح دلالي ما بين مستويين للواقع الثقافي". (10) .

مفهوم الفضاء:

ارتبط لفظ الفضاء في لسان العرب بالمساحة المكانية كما دل على المسافة والحيز فهو: "المكان الواسع من الأرض والفعل فضا يفضو فضوا (...) وفضا المكان وأفضى إذا اتسع . وأفضا فلان إلى فلان أي وصل إليه، وأصله انه صار في فرجته وفضائه وحيزه (...) والفضاء الساحة وما اتسع من الأرض (...) ومكان فاض ومفض أي واسع، والمفضي المتسع" (11).

ومن أهم ما جاء في موسوعة "لاروس" الفرنسية عن الفضاء أنه ما يحيط بنا، كافتقار الشساعة في غرفة لضيقها للذين يحبون الرحابة في المكان، وهو جزء من مساحة مستغل من فرد أو شيء، وهو مسافة بين شيئين، وانه يدل على مفهوم المساحة، فضاءات: طيران، شاسعة، قاحلة، فضاء حياة. كما انه يطلق على ملكية مخصصة محددة لممارسة أنشطة معينة، فضاء: قضائي، اقتصادي، جوي، حيوي ويطلق أيضا على مدة زمنية: رأيته ثلاث مرات في فضاء أسبوع . كما يعبر عن مدة أو فاصل قد يكون كافيا أو غير كاف، وهو مجال نحتاجه حتى لا نشعر بمضايقه الآخرين. والفضاء هندسيا مجموعة نقاط منها نكون فضاء جامعا ذا ثلاثة أبعاد (12).

الفضاء الروائي في النقد الأدبي:

الظاهر أن الرواية العربية التقليدية ما كانت تحيط الفضاء بالعناية الكافية فهي ترى فيه مجرد إطار يستوعب الحوادث فتشير إليه إشارة مفصلة في البداية ثم لا تلبث أن تشير إليه إشارة عابرة كلما تطلب الأمر ذلك، وفي أحيان كثيرة تتجاهله فتتساق في الحوادث، كما تطرق النقد الأدبي العربي إلى رصد الإنتاج الروائي في مقالات أو في مؤلفات وهذا جعله يطبق مناهج نقدية مستوردة ومتعددة. والمتتبع لهذا النقد يلاحظ قلة عناية الدارسين بالفضاء فالبعض منهم تطرق إلى رصد الإنتاج الروائي في مقالات أو في مؤلفات و طبق عليه مناهج نقدية مستوردة.

والجدير بالملاحظة أن اهتمام الرواية العربية المعاصرة بالفضاء كان ثمرة احتكاك بالثقافة الغربية وخاصة الرواية الفرنسية الجديدة، وهذا الاحتكاك أدى لتجديد فنيات بناء الرواية العربية، فأبعدها عن التقليد وصارت شعريتها تكمن أساسا في شكلها. ومع هذا

التجديد فقد بقى النقد الروائي العربي يقارب دراسة الفضاء الروائي مقارنة فيها خلط في الفهم وضبابية في التصور، وما هو جدير بالملاحظة أن تحديد مصطلح الفضاء ظل متلبسا فضفاضا في تصور النقد الأدبي العربي وفي النقد الفرنسي أيضا، بسبب شساعة المصطلح واختلاف وجهات النظر الفلسفية والإيديولوجية .

ويعرف " منيب محمد البورمي " الفضاء الروائي بقوله: " أما في الاصطلاح، فالفضاء الروائي الذي تتمظهر فيه الشخصيات والأشياء ملتبسة بالأحداث تبعا لعوامل عدة تتصل بالرؤية الفلسفية وبنوعية الجنس الأدبي وبحساسية الكاتب الروائي، وعلى هذا فالفضاء الروائي يتسع اصطلاحا ليشتمل أشياء متباينة ومتعددة لا حصر لها بدءا من المساحة الورقية التي يتحقق عبر بياضها جسد الكتابة إلى المكان والزمان، الأشياء، اللغة، الأحداث التي تقع تحت سلطة أدراكنا عبر أنماط السرد والتي تجسد عالم الرواية" (13).

وعليه فالفضاء الروائي كإنجاز فني لا يوجد إلا باللغة فهو إذن فضاء لفظي. ويقر الناقد المغربي حسن بحراوي بأن نقاد الرواية وكتابها يرون بأن تتمظهر الفضاء الروائي لا يكاد يخضع لقانون واحد ثابت متعارف عليه، ولذلك يركز على ما للمكان والشخصية من دور في تكوين الفضاء الروائي وما لهما من تأثير متبادل، فكما أن الفضاء الروائي يكشف لنا عن الحياة اللاشعورية للشخصية التي تشغله، كذلك لا شيء في الفضاء يحمل دلالة بدون الشخصية التي تحل فيه . (14)

وعليه نعتبر جهود الباحثين في دراسة الفضاء الروائي حديثة العهد لم ترق بعد لتكون رؤية نظرية متكاملة لدراسته، وتمثلت أساسا في اجتهادات باحثين ما فتئت تخطو بعزم وثقة نحو التأصيل. وفي هذا يقول (هنري متران H.mitterand) " لا وجود لنظرية مشكلة من فضائية حكائية، ولكن هناك فقط مسار للبحث، كما توجد مسارات أخرى على هيئة نقط متقطعة " (15)، وعليه فإن تجميع تلك الاجتهادات وتنسيقها قد يساعدنا على إقامة تصور لبناء هيكل متكامل عن الموضوع.

علاقة الفضاء بالزمن:

لم يميز الدارسون بين الفضاء والمكان في السرد الروائي إلا أن التمييز بينهما يقوم على أساس أن الفضاء يكون مشغولاً بالزمان والمكان وطبيعة علاقات الشخصية في فعلها وتفاعلها وما يمكن أن تسمة به من سماتها النفسية والذهنية في كل موقف.

إن الزمن الذي نحياه لا يمكن إدراكه إدراكاً حسياً أو مادياً ولا يمكن القبض عليه إلا من خلال علاماته في المادة، والزمن لا يمكن تخزينه لأنه متواتر يتم استهلاكه لحظة إنتاجه. وتكتسب الذات الحية النامية خبرة عقلية ونفسية وحسية عبر زمن حياتها، وهذا النمو والتراكم للخبرات هو المظهر الوحيد المدرك لفعل الزمن وهو متناوب الوجود، ولا علامة على وجود ما انقضى منه إلا ما خزنته الذاكرة من صور مادية، فتعي ما أصاب الموضوع من تغيير باسترجاع تلك الصور الذاكرة الأولى، فتدرك عندها الزمن .

والأدب فن متخيل، يقوم على توظيف الخبرة العقلية والنفسية والحسية بالاعتماد على الذاكرة، ، والذي يعنينا هنا هو الزمن الوجداني الذي ندرك به وجود الزمن، فالماضي لم يعد له وجود لانتهائه، والمستقبل لا وجود له لأنه لم يأت بعد .إن كل ما هو موجود هو لحظة الحاضر التي سرعان ما تتبدد فيطوئها الماضي؛ لأنه لا يمكن استمراره الزمن في خطه المتواصل وهو موجود فقط في الوعي الإنساني بذاته ووجوده ووجدانه .ولهذا أطلق (باختن Bakhtine) على الزمان والمكان وفعل وعلاقات الشخصية وتفاعلها، وما ينتج عن ذلك من علامات نفسية، ومواقف عقلية مصطلح (الكرونوتوب chronotop) إذ يستحيل فصل المكان عن الزمان اللذين تشغلهما الشخصية.

والفضاء في السرد الروائي يقوم على الجدل الحي والممتد والمتواتر بين الماضي والحاضر؛ لأنه يختزل ويخزن القضايا الهامة المتفاعلة والفاعلة في وجدان السارد وفكره؛ وبذلك يتجسد المتخيل الزمني في علاقات مادية تستدعي أمكنة لها علامتها، وتستمدّها من قوة الواقع، وبدونها لا يمكن فهم النص؛ لأننا لا ندرك فضائية الزمن إلا بقرائنه المكانية المادية التي تكشف لنا عن الأحوال النفسية والذهنية للشخصية الحالة في الفضاء.

كيف نقارب الفضاء الروائي؟

الفضاء كائن قوي الحضور في السرد. وكما رأينا، فإن مقارنة الفضاء الروائي في النقد الأدبي الغربي أو العربي ما زالت متعثرة بسبب اختلاف الفهم، وتعدد وجهات النظر، فلم تقدم الدراسات المنجزة في الموضوع مفهوما موحدا للفضاء، فمنها من حصرت في تصور، ومنها من قدمت له تصورين، ومنها من أدرجته في ثلاثة تصورات، ومنها من تخطى ذلك إلى أربعة، وذلك كما يلي:

1- الفضاء كمعادل للمكان:

الدراسات المنجزة في الموضوع تجعل الفضاء يعادل الحيز المكاني وسمته عادة بالفضاء الجغرافي (L'espace géographique).

وفيها يتميز المكان الروائي كمكان طبيعي ومكان هندسي، فيتحقق وجوده بالإدراك الحسي ويخضع للبعد الاعتباري الذي تحدده سلطة القانون الاجتماعي. وهذه العلامات لها دلالة حضارية ملازمة تكشف عن وضع ما في فترة ما "وهذا المكان الطبيعي يستعين به النص على تصوير العالم الروائي أو على إخراج المنظور الروائي في ذهن المتلقي وتدخل في الحساب الروائي أيضا مكونات المكان الأخرى كالأثاث والأشياء والمأكّل والمشرب ومقتنيات البيئة والطبيعة وكل ذلك يخضع للنمط الاجتماعي والحضاري والطبقي الذي ينتمي إليه المكان" 16. ممثلا في مجموعة من العلامات الجغرافية المنتشرة التي تشير للأماكن المتخيلة، وتدور فيها الحوادث لتحريك خيال المروي له، فـ"المكان هو ما عني حيزا جغرافيا حقيقيا، والحيز كل فضاء خرافي أو أسطوري، أو كل ما يند عن المكان المحسوس بالخطوط والأبعاد والأحجام والأثقال والأشياء المجسمة مثل الأشجار والأنهار، وما يعتور هذه المظاهر الحيزية من حركة أو تغيير". (17).

يتم تعيين الفضاء في السرد الروائي منذ بدايته، فيضيف المكان إلى زمان تلك الحكاية فيتلازمان، "وهذه الإشارة الفضائية تضيف على المحكي فور ذلك طابع الحقيقة أو الصدق فالمحكي لا يكون إلا مموضعا، أي قائما على الدلالة على حدث أو على نفيه فيلزمه إظهاره، وتعد تسمية المكان من ثم أمرا لا مفر منه". (18).

ولهذا يرى فليب هامون (Philippe hammon) أنه "حيث لا توجد أحداث لا توجد أمكنة" (19)، وكما أن السرد بحاجة إلى فواعل للحوادث، وإلى أزمنة لجرياتها كذلك يحتاج إلى أمكنة لتموضعها "ويكاد تعيين الموضع يرد من السطور الأولى في القصة بل انه يرد في الغالب في أول جملة فيها" (20).

ولهذا فإن تناول الفضاء يتجاوز فكرة الإشارة إليه كمكان جغرافي، ويهدف إلى تقديم صورة واقعية أو مستعارة عن الخارج فدراسته ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالآثار التشخيصية " (21) ، ولابد من تفتيت الأبنية ونطلق مما هو جزئي للقبض على ما هو كلي لنصل إلى طبيعة مكون الفضاء الروائي، أي تمظهر المكان في الروايات ونظام عمله، فالفضاء الجغرافي هو الذي يمكن القارئ من التخيل والتعرف الموضوعي على الأماكن فندرسه في البداية مستقلاً عن المضمون مثل ما يفعل المختصون عند مسحهم للفضاء الحضري، وكما يرى (هنري ميتيرون H.mitterand) فإن "هؤلاء لا يهتمون من سيسكن هذه البنايات ومن سيسير في هذه الطرق، ولا ما سيحدث فيها، ولكن يهتم فقط أن يدرسوا بنية الفضاء الخالص" (22)

2- الفضاء النصي (فضاء المتن الروائي):

بالرغم من عدم ارتباط الفضاء النصي بمضمون الفضاء الروائي إلا انه يسهم في إلقاء الضوء عليه ويعمل على تحديد طبيعة العمل ومن ثمة إرشاد القارئ لفهمه. ودراسة الفضاء النصي (espace textuel) تتكون من محورين بحسب التأصيل النظري للناقدين (جوليا كريستيفا) والناقد (ميشل بوتور) وبالرغم من استخدامهما لذات المصطلح "الفضاء النصي" إلا إنهما يختلفان في مفهومه وآليات عمله ف(جوليا كريستيفا) تعني به الرؤية التي ترصد العالم الروائي وتخرجه وتؤلف بين عناصره وترى بأنه "مراقب بواسطة وجهة النظر الوحيدة للكاتب التي تهيم على مجموع الخطاب بحيث يكون المؤلف بكامله متجمعا في نقطة واحدة وكل الخطوط تتجمع في العمق حيث يقبع الكاتب" (23).

أما (ميشال بينتور) فيريد به الحيز الذي تشغله الكتابة الروائية لتكون المتون النصية على مساحة الورق، وينصب الاهتمام على "طريقة تصميم الغلاف و وضع المطالع وتنظيم الفصول وتغيرات الكتابة المطبعية وتشكيل العناوين" (24). في السرد الروائي لا نعثر حقيقة إلا على فضاء لفظي وهو المنجز بالفعل في اللغة التي بدورها توحى بالبعد التخيلي فتحاكي العالم المادي بإشارات وعلامات لفظية وطباعية وهذا ما سميناه بالفضاء النصي انه فضاء سيميولوجي و"أن التركيب الخاص الذي تخرج به عناصره هو الذي يقرر الطابع المميز لعمل قصصي أو روائي بعينه مقابل سواه من الأعمال المماثلة الأخرى" (25).

وبهذا ننظر إلى فضاء الكتابة الروائية نظرة مكانية لأنها تتمظهر على مساحة المتن بأبعاده وفيه يتحرك نظر القارئ .

يدخل الغلاف — بما فيه العنوان — في بناء متن الرواية وله دور في إغراء المتلقي وغوايته بالإقبال على النص الروائي، انه يدخل لعبة شبيهة بعرض الجسد بإتقان فن الإغراء والسحر والافتان والإثارة وتدفع القارئ من ثمة إلى الإقبال على متعة التخييل وتحريضه على انتهاك جسد النص والتمتع بلذته. والغلاف بما فيه العنوان وجه النص الوسيم الذي يملك القدرة على الإغواء والإغراء وفيه الشفرة الأولى التي يواجهها القارئ. وغلاف الرواية قد يرفق بلوحات فنية وتشكيلية أو برسوم، ومع أن الكاتب قد لا يشكلها بيمينه فما من شك بأن له دورا في اختيارها، ولها بذلك وظيفة توجيهية ومحرضة ، فالغلاف بلوحته التشكيلية مثلا يصنع الفرجة ويدفع للإقبال عليه والقبول به بقصديه التعرف على ما يستبطنه من دلالة بغاية أبعد منه أثرا وهي تجاوز عتبته واستبطنه وانتهاك أسرارهِ وسبر أغوار جسد المتن الروائي .

ويعتبر العنوان أيضا موازيا للنص الروائي بملحقاته وهو عتبة النص والعلامة المميزة له عن غيره، بل انه واجهة لعمارة البناء النصي تعمل على توجيه القارئ. ونذهب إلى ما ذهب إليه الدارسون وهو أن العنوان يرتبط بنصه ارتباط الأصل بفروعه لتضمين فكرة تسكن جسد النص فتنمظهر في سياقاته ودلالاته ونشأته وهو ما

ذهب إليه (جريفل) أيضا حيث بين "أن العنوان يتضمن العمل الأدبي بأكمله بنفس القدر الذي يتضمن به العمل الأدبي العنوان" (26).

كما تبرز فصول المتن الروائي في بناء الفضاء النصي بمختلف تشكيلاتها ومكوناتها على الورق، فتظهر رؤيا المبدع المتمسك بالحركية لكنها حركة مفروضة من العلاقة بين متناقضات متدافعة ونلاحظ كيف تتيح أضيق المساحات النصية أكبر قدر من الحرية والحركة لإعداد صفحات الفصول في علاقاتها بالحركة والشخصية.

والظاهر أننا قد لا نعثر في كل الروايات على عناوين للفصول في بداية كل فصل مما يساهم عادة في تلخيص محتواها، وهذا يغرينا أكثر بقراءتها لسبر أغوارها وكشف أسرارها، وهذه ربما هي رغبة الكاتب الذي يريد أن يجعل القارئ مشاركا وبان للنص وفق مرجعيته وإستراتيجية التلقي ورؤيته للعالم، فعلى المتلقي أن يبحث علاقة العنوان بالنص ويكشف عن مقاصده فعناوين الروايات ملزمة إلى حد بعيد للقارئ لكونها ملائمة ومعبرة عما رغب في إبلاغه للمتلقي وما يمكن أيضا أن يصل إليه هذا الأخير من معنى يتعالق مع قصديه الكاتب، فالعنوان في واقع الأمر هو النص لأن النص في الحقيقة هو توسع وشرح لفكرة الموضوع المدرجة في العنوان

إن تحديد العلاقات بين العبارات والفقرات والوحدات والفصول بالإضافة إلى البياض وعلامات الحذف في المتن الروائية يعمل على إخراج فضاء نصي له دور وظيفي وجمالي من خلال تفاعل مخيلة القارئ مما يضيف بعدا في معادلة فضاء النص والقارئ فيدفعه نحو البحث عن مكنونه.

يتأسس فضاء النص من وعي الكاتب بعملية الكتابة وتشكلاتها وهذا من خلال استعمال فضاء الورق واستغلال البياض بفعالية ودلالية. وإن هذا التوظيف يختلف عن النظام العادي لأنه يخلخل رتابة الوعي كما يخلخل الإدراك لأن الكاتب يهدم الاتساق والانسجام المعهودين ليقيم اتساق وانسجاما من نوع جديد على بياض الورق هو نتاج وعي وتجربة تجلت في رؤيا استغلال الفضاء وامتلاكه وإظهار الصراعات عليه.

3- الفضاء كمنظور أو رؤية:

يتطلب تقديم نص الحكاية شفهيًا أو كتابيًا وجود هيئة راوية لأن الحوادث تعجز عن تقديم نفسها مباشرة، إلا من خلال هيئة راوية فبدون راو لا توجد راوية ويبقى الخطاب السردي غير مؤسس ويبقى دوماً في حالة افتراض بلا وجود، ويجب علينا في هذا الصدد التمييز بين مادة الحكاية الروائية كخطاب ونص. فبين الراوي والمروي له تنهض الرواية كخطاب وبين الكاتب والقارئ تتأسس الرواية كنص .

وقد استقطب الراوي اهتمام المبدعين والنقاد مع لدوره في بنية الخطاب الروائي، وأدى هذا إلى تطوير مهم في تقنيات التوصيل الروائي. لقد افتن الكتاب في توظيف الراوي وانعكس ذلك على عملية الإبداع الروائي فتتوعد الرؤية في العمل الواحد وفق ما يتطلبه السياق والحاجة السردية.

ولقد اهتم الدارسون ببحث مختلف أحوال وضعيات وظهور السارد في السرد من حيث تجلياته في علاقته بالشخصيات أو بتمته الحكائي ليؤسس خطابه ويوجهه نحو المروي له وهذا ما أطلق عليه الدارسون مصطلح وجهة النظر (point de vue). والملاحظ أن هذا المصطلح له عدة مفاهيم متشعبة بسبب "ما دخله من ضبابية وسوء فهم عند استعماله من قبل المهتمين، فهم مائع وغير محدد لدرجة توحى بما لاحصر له من التصورات والمفاهيم" (27).

والرؤية السردية المكونة من الراوي/ السارد والمروي والمروي له وهي في رأيها مقولة جامعة ومنفتحة على الراوي كمنتج للسرد، وعلاقته بما يرويها ولمن يرويها وعلى أساس الرؤية السردية ينهض أي خطاب سردي.

والذي يمكن الاطمئنان إليه في هذا المجال هو تلك الدراسات التي تبدو لنا سليمة المفاهيم دقيقة التصور، تلك أنجزها (جون بيون Jean Pouillon) في كتابه (الزمن والرواية / temps et roman) و(ت. تودوروف t.odorov) في (مقولات المحكي الأدبي les catégories du récit littéraire) و(جيرار جينيت Genette) في كتابه (وجوه 3/figures).

إن الرؤية السردية التي تتولى القصص تعتلي الفكرة القائلة بأن الكاتب هو الراوي وأن ما يكتبه تعبير عن شخصية، ولكن الدراسات الأدبية والنقدية والكتابة الروائية جعلت الكاتب خارج النص، ودعت إلى عدم الخلط بينه وبين الراوي أو الشخصيات الروائية فالقصص ليس تعبيراً عن الكاتب، أو إخباراً عن شخصيته .

وتتأسس صيغة السرد على وضع الراوي والمنظور الذي يروى منه ما يرى ويسمع وقد يكون الراوي واحداً أو عدة رواة وتكون الرؤية خارجية أو داخلية أو مركبة ووفق المسافة التي يجعلها بينه وبين ما يرى، فقد ينقل لنا الحادثة أو المشهد بأسلوب غير مباشر فالصوت الراوي المعبر عن الرؤية قد يكون على صلة بالمعطي الزمكاني للرواية أو مفارقاً له أي كطرف فيه أو خارج عنه .

إن المستوى السردى هو المتحكم في الإنجاز القصصي غير أن كيفية إخراج عناصره هي التي تحدد الطبيعة الخاصة المميزة من عمل فني لأخر .

4- الفضاء الوجداني (الدالي)

حديثنا عن الفضاء الجغرافي الذي ينشأ عن موضوع الرواية وما ترصده من حيز زمكاني تتحرك فيه الشخصيات وتتولد عنه الحوادث وترصد فيه الأشياء تطلب الحديث عن فضاء آخر له صلة بالفضاء الجغرافي، لكنه يبحث في كنه تلك الصور في جانبها المجازي بعد أن رصدها في بعدها الواقعي ف"التعبير الأدبي لا يحتمل دائماً معنى واحداً، فهناك وكما يرى جبرار جينيت فضاء دلالي (Espace semantique) يتأسس بين الدال المجازي والمدلول الحقيقي وهذا الفضاء من شأنه أن يلغي الوجود الوحيد للامتداد الخطي للخطاب، ويعتبر (...). بأن هذا الفضاء ليس شيئاً آخر سوى ما ندعوه عادة صورة (figure) " (28).

إن النص الروائي كفن ذي محتوى له موضوع يحمل وظيفة تواصلية وكان (بارت) قد أكد أن " النص تعددي قاصداً بذلك أنه يحقق تعدد المعنى ذاته " (29) فإن تفجير المعاني وجمع المشتت يتحول إلى حقل متسق الأجزاء منسجم المعنى فما يحتاجه النص هو التأويل المنظم استناداً إلى ما ينطوي عليه من قرائن دلالية ف" النص يحيا حياته الأدبية بوجود خاصية التأويل " (30).

والتأويل كما يذهب (تودروف) هو " إدخال العمل الأدبي في علاقاته مع القراءة و" القراءة خارج التأويل وبالتالي فإن النظر في النص دون تأويله يعني لا قراءته (31).

فالعلامات تسمح لنا أن نفكر وان نتواصل مع الآخر أن نعطي معنى لما نصادفه في الكون فمثلا في فضاء البيوت والغرف الساحات البارزة التي تجري فيها الحوادث أو يدور فيها الحوار أو يتم فيها استرجاع الذكريات أو التوق إلى الأحلام والتطلعات، في هذا البناء تكتشف سر ودلالة تقديم الداخلي على الخارجي والخاص على العام.

وفي الغرفة أو العمارة أو الحي يتم الإعلان الضمني على حال ساكنيها الأمر الذي يضيء لنا الجانب الخفي من حياة الشخصية، فيؤكد لنا هذا شدة معاناتها ووضعها المأساوي المدمر. كما أن تلك الرجعات المنقطعة التي قد توردها ذاكرة الراوي تظهر اضطراب الشخصية، وتعلقها بالماضي السوي الذي يعد في وفاق مع الحاضر المضطرب المشحون بالتمزق بالآلام.

فالفضاء الدلالي يعني الإسقاطات التي تسم المكان نتيجة لنظرة الشخصية الحالة به وعادة ما تكون متصلة بحالاتها النفسية وانطباعاتها الوجدانية مما له علاقة بالحادثة وبمخزون الذاكرة.

إن اختيار القضايا الأكثر أهمية ومناسبة التي تعتبر شرطا للتأويل في ظل هيمنة الموضوع كبنية دلالية كبرى حذفت تفاصيلها ولا يمكن استنباط ذلك إلا بالاعتماد على معرفة المتلقي بالعالم.

خاتمة:

ومما سبق نخلص إلى أن الهدف هذه الدراسة هو مقارنة الفضاء في السرد الروائي من خلال اعتماد وجهات النظر المتعددة، وكان القصد محاولة تقديم صورة متكاملة عن الموضوع - الذي مازال بكرام فمازالت مقاربتة في النقد الأدبي الغربي أو العربي متعثرة بسبب تنوع الرؤى واضطراب المفاهيم، واختلاف المصطلحات .

إن الفضاء الروائي كإنجاز فني يتأسس في تجربة جمالية، وقد يتولد انزياح *écart* عن الحسي المباشر، ليشع المعنى بالقراءة والتلقي، وهي ضرورة لكل فضاء كتابة إنها

الإضاءة المتولدة عن توظيف فضاءات بذاتها دون غيرها، وفي لحظات معينة بما يخدم إستراتيجية الكتابة والقراءة أيضا.

وان الرواية لا تعد فضاء مبتكرا إلا إذا هيأت له منظورا ووزعت الرؤية فيه بما يخدم إستراتيجيتها. فتكاد كل فقرة في السرد الروائي تستدعي فضاء، إذ إنها ما تفتأ تعبر عن حادثة تنجز فتعبر بحضورها في الوجود، فلا رواية من غير فضاء، والمحكي كفضاء استعاري هو الفضاء ذاته.

قائمة المراجع:

- (1) - ابن منظور: لسان العرب، "فصل الصاد المهمة، مادة صورة" حققه وعلق عليه عامر أحمد حيدر راجعه عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ-2003 م المجلد الرابع ص 545، 546 .
- (2) - الجاحظ: الحيوان، تحقيق وشرح الأستاذ عبد السلام هارون القاهرة، 1356، 1366هـ - 1938، 1947م، ج2، ص 132.
- (3) - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، طبعة رشيد رضا، القاهرة، 1358 هـ - 1939 م، 347.
- (4) - الشيخ الرئيس (أبو علي بن سينا): فن الشعر، من كتاب الشفاء، تحقيق الدكتور عبد الرحمان بدوي، القاهرة، 1966، ص158 .
- (5) - Grand dictionnaire encyclopedique, larousse, librairie larousse, mars; 1983, v10, p5475 . ينظر: (5)
- (6) - عبد المالك مرتاض: بنية الخطاب الشعري، دار الحداثة، لبنان، 1986، ص7.
- (7) - الجاحظ: البيان والتبيين تحقيق وشرح الأستاذ عبد السلام هارون القاهرة، الناشر مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ط7، 1998، 1418، ص75.
- (8) - إبراهيم السيد : نظرية الرواية، دراسة لمناهج النقد الأدبي في معالجة فن القصة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص 97.
- (9) - عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986، ص82.
- (10) - Pageux(daniel henri « de l'imagerie culturelle à l'imaginaire » un précis de littérature comparer 1 éd puf; 1989, p 135.
- (11) - ابن منظور: لسان العرب، "فصل الفاء، مادة فضض" المجلد السابع، ص، 234، 233 .
- (12) - ينظر: (12) - Grand dictionnaire encyclopédique, Larousse, librairie Larousse, mars; 1983, v4, p3887; 3888.

- (13) - منيب محمد البورمي: الفضاء الروائي في الغربية، "الإطار والدلالة"، سلسلة دراسات تحليلية، دار النشر المغربية، ط، 1984، ص21.
- (23) - ينظر حسن البحرأوي: بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربيين بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1990، ص27، 36، 44.
- (24) حميد لحداني: بنية النص السردى من منظور النقد الأدبى، المركز الثقافى العربى الدار البيضاء، ط، 2000، ص53
- (16) سليمان حسن: مضمرة النص والخطاب، 'دراسة فى عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائى"، منشورات اتحاد كتاب العرب، 1999، ص 305 .
- (17) - عبد المالك مرتاض: تحليل الخطاب السردى، مرجع سابق، ص245
- (18) - جبرار جينات وآخرون: الفضاء الروائى، ترجمة عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، المغرب، 2002، ص71
- (19) - جبرار جينات وآخرون: الفضاء الروائى، مرجع نفسه، ص6.
- (20) - جبرار جينات وآخرون، الفضاء الروائى، المرجع نفسه، ص71.
- (21) - جبرار جينات وآخرون:الفضاء الروائى، مرجع سابق،ص20.
- (22) حميد لحداني:بنية النص السردى من منظور النقد الأدبى، مرجع سابق، ص54.
- (23) حميد لحداني، بنية النص السردى من منظور النقد الأدبى، مرجع سابق، ص 61.
- (24) حميد لحداني، بنية النص السردى من منظور النقد الأدبى، مرجع سابق، ص55
- (25) سامى سويدان: أبحاث فى النص الروائى العربى، مرجع سابق ص 159
- (26) علي حداد: العين والعتبة، مجلة الموقف الأدبى، عدد 370، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، شباط 2002، 370ص.
- (27) عبد العالي بو طيب مستويات دراسة النص الروائية مقاربة نظرية، مرجع سابق ص 182.
- (28) حميد لحداني: بنية النص السردى مرجع سابق ص60، 61.
- (29) رولان بارت ،درس السيميويوجيا، ترجمة عبد السلام عبد العال، توبقال 1986 ص 62.
- (30) صدوق نور الدين، حدود النص الأدبى، دار الثقافة، الدار البيضاء 1984، ص20.
- (31) يمنى العيد، تقنيات السرد الروائى، دار الفرابى بيروت 1990، ص 22 .